دور الجامعة
في تنمية السلوك المدني

الغالي أحرشاو

** أستاذ باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز*
** متخصص في السيكولوجيا المعرفية ويهتم حاليا بسيكولوجيا الكفاءات والتربية المعرفية*
** منسق سابق لمسلك علم النفس ورئيس وحدة النمو وسيرورات اكتساب المعارف وعضو اللجنة العلمية للكلية*
** عضو مركز الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية ورئيس مجموعة البحث "المعرفية واللغة والتربية"*
** نائب رئيس الجمعية المغربية للدراسات النفسية وعضو الهيئة الاستشارية لعدد من الجمعيات والمنظمات العربية*
** عضو الهيئة الاستشارية والتحريرية لعدد من المجلات العربية المتخصصة في العلوم النفسية والتربوية*
** مشارك في عدد من اللقاءات العلمية الوطنية والدولية المهتمة بالخصوص بالسيكولوجيا واللغة والتربية والثقافة والبحث العلمي*
** مؤلف وصاحب عدد من الكتب والأبحاث والمقالات التي قاربت موضوعات وإشكاليات الذكاء واللغة والتربية والثقافة وعلوم الإنسان والمعرفية والبحث العلمي*

الراجح أن بناء المواطن المدني المتحضر، المتشبث بالثوابت الوطنية والقيم الحضارية المنفتحة، المعتز بهويته وانتمائه، المدرك لحقوقه وواجباته، المتسلح بفضيلة التواصل والحوار وبمبادئ العدالة والتسامح والحرية المسؤولة، أضحى يمثل أحد الرهانات التنموية الأساسية للمنظومات التربوية الحديثة. فبعد أن كان تحقيق هذا الرهان حكرا على مؤسسات الأسرة والمدرسة والحزب والإعلام والجمعيات المدنية، أصبح اليوم يعتمد على الجامعة كمؤسسة تربوية لها دورها الحاسم في تنمية السلوك المدني وترسيخ أساليب ممارسته كثقافة يومية تؤطرها قيم الديقراطية الحقيقية والمواطنة الفعلية. وإذا كان دور الجامعة هذا يعتبر من الأمور البديهية لدى المجتمعات المتقدمة ذات التقاليد الديمقراطية العريقة والتجارب الحضارية الغنية، فالأكيد أن هذا الدور ما يزال يمثل بالنسبة لنا في المغرب مطلبا استعجاليا وضروريا وذلك لاعتبارات عديدة نجمل أهمها في القرائن الثلاث التالية:

* حتمية ترسيخ قيم المواطنة الصادقة وفضائل السلوك المدني في التصرفات والممارسات اليومية للأفراد والجماعات والمؤسسات، تماشيا مع مختلف التحولات الاجتماعية والثقافية والتربوية العميقة التي أصبح المجتمع المغربي مسرحا لها في السنوات الأخيرة.
* الوعي المتنامي بمكانة الجامعة ودورها في بناء مجتمع المواطنة المسؤولة الرافضة لكل ثقافة تحركها نزعات وهواجس التعصب والانغلاق والتطرف والإرهاب والتدمير...إلخ.
* التنصيص الواضح للدولة وعدد من قطاعاتها الحكومية، عبر جملة من الوثائق والتقارير والندوات، على أهمية وضرورة انخراط المنظومة التربوية بمختلف مستوياتها ومؤسساتها في سيرورة خدمة

التنمية المستدامة من خلال تلقين وترسيخ مبادئ السلوك المدني للموطن المغربي (هنا تندرج الرسالة الملكية الموجهة إلى الندوة الوطنية "المدرسة والسلوك المدني"، وأشغال كثير من الملتقيات الوطنية والجهوية بما فيها بعض دورات المجلس الأعلى للتعليم، الهادفة من جهة إلى تفعيل بعض مقتضيات الميثاق الوطني للتربية والتكوين في مجال السلوك المدني، ومن جهة أخرى إلى تدعيم المكتسبات التي حققها المغرب في ميدان التربية على المواطنة وحقوق الإنسان).

إذن، إذا كانت هذه الاعتبارات وغيرها تؤكد على مختلف الرهانات والتحديات التي تنتظر الجامعة المغربية، وبالخصوص في مجال تحديث المجتمع وتطوير بنياته المختلفة عبر تنمية معارف الشباب وتربية كفاءاتهم وتهذيب مهاراتهم وتصرفاتهم، فالثابت أن هذه المؤسسة ما تزال تتخبط في متاهات ودوائر من المشاكل والصعوبات التي تبقيها بعيدة عن معالم ومواصفات الجامعة النموذجية القادرة على المساهمة الفعلية في ترسيخ ثقافة السلوك المدني ونشر مبادئ وعيها وإجراءات ممارستها عملا بمنطق ترجمة الأفكار إلى أفعال والشعارات إلى إنجازات والأهداف إلى نتائج.

تبعا لهذه الاعتبارات التي قصدنا من استحضارها التدليل على الطابع الاستعجالي للانخراط الفعلي للجامعة في تحقيق بعض رهانات ترسيخ ونشر ثقافة السلوك المدني، سنوزع مضامين هذه الورقة على محورين اثنين، بالإضافة إلى خلاصة نقترح من خلالها بعض الإجراءات التطبيقية.

1. السلوك المدني كوظيفة من وظائف الجامعة

تشكل الجامعة الحديثة إحدى المؤسسات الرئيسية التي تسخرها المجتمعات المتقدمة لترسيخ قيمها الثقافية والحضارية ولتحقيق مشاريعها التربوية والتنموية. فوظيفتها أصبحت تتركب من دورين اثنين: أولهما معرفي- أكاديمي، غايته تلقين المعارف ونشرها وتدريس العلوم وتطويرها. وثانيهما وظيفي- اجتماعي، قوامه تلبية رغبات الإنسان الثقافية والمهنية ثم خدمة حاجات المجتمع الحضارية والثقافية والتنموية (أحرشاو، 1991). فمثلما سبق التأكيد على ذلك فإذا كان المقصود بتنمية السلوك المدني يكمن في تكوين المواطن الحرالمتحضر، الواعي لحقوقه وواجباته، فإن ربح رهان مثل هذه التنمية يشكل في جانب منه مهمة تقع في صميم عمل الجامعة. فدورها التربوي والتثقيفي في زرع وترسيخ مبادئ ومقومات السلوك المدني في عقول ووجدان الشباب، تجعل من أنشطتها وتكويناتها وظيفة حاسمة في هذا المضمارالذي تتحدد غايته المثلى في تكوين المواطن الخلوق المعتز بالثوابت الدينية والوطنية لبلاده، المتمسك بمقومات هويته بشتى روافدها، المتمتع بالحقوق والحريات، الملتزم بالواجبات والقوانين، المساهم في الحياة الديمقراطية والمكتسب للمناعة تجاه السلوكات اللامدنية (الرسالة الملكية، 2007). فلهذه الاعتبارات كلها لم يعد من مصلحة هذه المؤسسة أن تتملص من دورها المدني هذا لتشكل فضاء جامعيا رحبا وخصبا يكرس كل هذه التجليات المدنية عبر برامج غنية وأنشطة متنوعة، قوامها التصدي بحزم وصرامة لمختلف تلك السلوكات اللامدنية ولاسيما سلوكات العنف بشتى أشكاله والغش بمختلف أساليبه ثم الاعتداء على حرمة الجامعة أو المساس بنبل فضائها.

2. مقومات ومداخل التربية على السلوك المدني بالجامعة

على أساس أن النهوض بثقافة السلوك المدني يُعَدُّ بامتياز من المهام المطروحة على أغلب البلدان بما فيها المغرب، فإن الجامعة أصبحت هي الأخرى مدعوة إلى المساهمة الفعلية في ترسيخ هذه الثقافة ونشرها داخل وخارج فضائها من خلال اعتماد مجموعة من المقومات والمداخل يتلخص أهمها في الآتي (أحرشاو، 2006؛ المجلس الأعلى للتعليم، 2007):

* اتخاذ الجامعة كفضاء خصب لبناء مجتمع المستقبل، حيث إن تحصينها من الداخل عبر اعتماد ثقافة السلوك المدني بمختلف مقوماتها الأخلاقية والقيمية والقانونية والتربوية كأسلوب لممارساتها وتعاملاتها، يُعَدُّ ضمنيا تحصينا للمجتمع بشتى شرائحه وفئاته وبتنوع مشاكله ورهاناته.

* النظر إلى السلوك المدني كمنظومة ثقافية متكاملة المكونات والخصائص، تزاوج بين مظاهر التشبع بالقيم الوطنية والمثل الأخلاقية والقواعد القانونية الفردية والجماعية، وبين أساليب التصدي الحازم والصارم للتصرفات اللامدنية بشتى أشكالها وأنواعها. وبهذا المعنى يصبح اهتمام الجامعة بتربية الناشئة على هذا السلوك بمثابة الانشغال الدائم التجدد والتطور بفعل ما يرتكز عليه من برامج وآليات دقيقة وواعدة بالعطاء في مجال التكوين والتحسيس والتوجيه.
* التطلع من خلال المنظومة الجامعية بمختلف برامجها وأنشطتها الثقافية والفنية والرياضية إلى تجسيد ثقافة السلوك المدني كممارسة فعلية يحكمها هاجس الارتقاء الواعي بالحياة الجامعية إلى مصاف المثال النموذجي للسلوك الحر المسؤول والتصرف الديمقراطي المتحضر، سواء داخل الأقسام والمدرجات أو خارجها.

إذن، إذا كانت المقومات الثلاثة السابقة تشكل المداخل الأساسية التي يمكن للجامعة المغربية أن تعتمدها كخطاطة عمل من أجل ترسيخ ثقافة السلوك المدني ونشرها في صفوف الشباب حتى يصبحوا مواطنين غيورين على وطنهم، معتزين بوطنيتهم ومُحصَّنين تجاه ثقافة العنف والتطرف والغش، فإن تجسيد كل ذلك على أرض الواقع كتصرفات وممارسات مدنية فعلية يستدعي الإستناد إلى مجموعة من الإجراءات والآليات التي نجمل أهمها في البعدين التاليين (أحرشاو، 2008؛ المجلس الأعلى للتعليم، 2007):
* إذا كان اضطلاع الجامعة بمهمة التربية على التشبع بثقافة السلوك المدني يندرج في عمق سيرورة عملها ويُعَدّ إحدى وظائفها الطبيعية، فإن انخراطها في سلسلة من الأوراش التحسيسية والبرامج التربوية والأنشطة التثقيفية التي يشارك فيها كل الأطراف المكونة لها من إداريين وأساتذة وطلبة، لابد وأن يفضي من جهة إلى تحقيق غايات هذه المهمة النبيلة وخاصة في مجال تنمية ثقافة الحوار والاختلاف والتسامح وترسيخ قيم الحرية والمسؤولية والعدالة ثم تشجيع روح المواطنة والمبادرة والمنافسة الشريفة، ومن جهة أخرى إلى تصالح هذه المؤسسة مع مجتمعها واسترجاع مكانتها ودورها كرافعة للإصلاح المتجدد ولبناء مغرب المستقبل المشرق.
* إذا كانت فعالية الجامعة المأمولة عندنا تتوقف إلى حد بعيد على مدى قدرتها على المساهمة في تكوين المواطن المتحضرالمسؤول، المدرك لحقوقه وواجباته، المعتز بهويته ووطنيته والمنفتح على محيطه وعلى العالم، فإن ذلك لن يتأتى إلا باعتماد خطة مدنية دقيقة، غايتها تحويل الجامعة إلى مؤسسة مدنية حقيقية، يحكمها فضاء رحب للإصلاح والتغيير وبرنامج خصب للتربية على السلوك المدني بأخلاقياته وقيمه وقوانينه المتشبعة بروح المواطنة الحقة والديمقراطية الفعلية والعدالة العادلة. بمعنى الجامعة الخادمة لوطنها، المندمجة في محيطها والمؤهلة لربح معركة التنمية بما في ذلك رهان تأهيل الإنسان وتحديث المجتمع عبر ترسيخ ثقافة السلوك المدني ونشرها.

أهم المراجع

- الرسالة الملكية الموجهة إلى الندوة الوطنية التي نظمها المجلس الأعلى للتعليم بالرباط يومي 23 و 24 مايو 2007 في موضوع "المدرسة والسلوك المدني".
- الميثاق الوطني للتربية والتكوين (يناير، 2001)، منشورات اللجنة الخاصة بالتربية والتكوين.
- دورات المجلس الأعلى للتعليم المنعقدة بالخصوص أيام 27 و 28 فبراير وفاتح مارس 2007 حول "دور منظومة التربية والتكوين في تنمية السلوك المدني".
- أحرشاو، الغالي (1991)، الجامعة والتنمية: أية علاقة (نموذج جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس)، مجلة الجواهر، العدد 2.
- أحرشاو، الغالي (2006)، السياسة التعليمية وخطط التنمية العربية: حصيلة وآفاق، شؤون عربية: العدد 127.
- أحرشاو، الغالي (2008)، المجتمع المدني العربي ورهانات التنمية المستدامة، مجلة علوم التربية، العدد 36.